

الدراسات الاستشراقية بين الرفض والتأييد إشكال وأشكال - رؤى تقييمية -

الدكتور: عمار ربيع

طالبة الدكتوراه: رميساء مزاهدية.

قسم الآداب واللغة العربية

كلية الآداب واللغات

جامعة محمد خيضر - بسكرة

توطئة:

الدراسات الاستشراقية مكتبة ثرية عريقة في مجال البحث العلمي، لا يحسن بنا أن نتجاهلها، فقد أخذت على عاتقها دراسة الشرق، بغرض تحجيمه، ثم بغرض إعادة تشكيله وإعادة تفصيله على النحو الذي يحقق ما يريدون وعلينا الوقوف على ما يرمون الوصول إليه من خلال التمحيص والتدقيق في آثارهم بعين حازمة ورؤية صادقة بعيدا عن المغالاة والمبالغة فلسنا في موقف الرفض المتحمس لكل ما يمت إلى الاستشراق بصله، أو المتبني المنذع الذي يرى في فلسفة الاستشراق عقيدة يدين بها، ومنهجا لا يحيد عنه، فنحن في موقف تقويم ظاهرة الدراسات الاستشراقية وإعطاء الصورة الصادقة والحكم الصائب على عمل المستشرقين ما دمنا بصدد تقييمه ووصفه تقويما منصفا دقيقا بغية الكشف عن أهدافهم المضمرة التي كانت تختبئ في مخالب دراساتهم للشرق وترويض الشرق عليها، وكذا القول فيها قول فصل ليححص الحق في الأعمال التمييزية والإبداعية والثناء عليها.

سنحاول في هذه الورقة البحثية أن نقدم رؤى تقييمية تكون خطوة للحكم المنهجي، العلمي والموضوعي على عمل المستشرقين والخلفيات الأيديولوجية والعقائدية الفكرية للصراع الحضاري التي تحكمها، سيما وأن موضوع الاستشراق يفرض نفسه علينا بإلحاح ويتطلب منا وقفة تقييمية تأملية جادة على دراساتهم والتعرف على الكتب التي تجذب انتباههم من أي لون ومن أي فرع من فروع المعرفة والحكم على درجة الصحة والإجادة والاتقان فيها وما يعترها من خلل وزلل نتيجة للأحكام المسبقة والمواقف غير المحايدة بل العدائية التي تدعو إلى تعمد

التشويه والتحريف وما له من أبعاد وتأثيرات وذلك من خلال الفصل في القضية" وأن نقدر للقوم عملهم حق قدره لا ننقصهم ولا نبخسهم، ولا نزيدهم ولا نمجدهم بدعوى الاعتدال والانصاف أو تغطية لشعور العجز والهوان"¹

فالاستشراق قضية تتناقض حولها الآراء في عالمنا العربي الإسلامي، فهناك من يرفضه جملة وتفصيلا ويلعن كل من يشتغل فيه بوصفه عدوا لدودا للغة القرآن والإسلام والمسلمين، وهناك من يؤيده ويتحمس له إلى أقصى حد، و"الواقع الذي لا يمكن إنكاره هو أن الاستشراق له تأثيراته القوية في الفكر الحديث إيجابا أم سلبا أردنا أم لم نرد، ولهذا فإننا لا نستطيع أن نتجاهله أو نكتفي بمجرد رفضه وكأننا بذلك قد قمنا بحل المشكلة، إننا لو فعلنا ذلك لكنا كالنعامة التي تدفن رأسها في الرمال. ولهذا فإنه ليس هنالك بديل عن مواجهة المشكلة وطرحها على بساط البحث ودراستها واستخلاص النتائج واقتراح الحلول"².

والاستشراق في - حقيقة الأمر - يشتمل على عناصر سلبية وأخرى إيجابية، وعلينا أن نعترف للمستشرقين بما لهم من إيجابيات، ومن ناحية أخرى فإنه من حقنا بل من واجبنا، أن ننبه إلى ما وقعوا فيه من أخطاء، وما اشتملت عليه دراسات العديد منهم من أباطيل، وخاصة فيما يتعلق بالقرآن الكريم ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم. لن يتقبلها كل مسلم عربي غير على دينه ولغة قرآنه"³.

مفهوم الاستشراق:

لابد من التريث والنظر نظرة العاقل الذي يتمتع ببعد الرؤية قبل أن يغامر المرء بإطلاق تعميمات على مفهوم هو على هذه الدرجة من الغموض ومن الأهمية في آن واحد.

لذا سنغنى برصد وتتبع الاستشراق من الجانب اللغوي والاصطلاحي:

أ - الاستشراق لغة:

لقد جاء في لسان العرب أن أصلها يعود إلى مادة (ش ر ق).

شرق: شرقت الشمس تشرق شروقا وشرقا: طلعت، واسم الموضع: المشرق والتشريق: الأخذ من ناحية المشرق...، شرقوا ذهبوا إلى الشرق، وكل ما طلع من المشرق فقد شرق.⁴

ب - اصطلاحا:

يعرّفه إدوارد سعيد بأنه: "مادة للتفسير حدث أن كانت مادتها الشرق، بحضارته، وشعوبه وأقاليمه المحلية، واكتشافات الاستشراق الموضوعية، وهي حصيللة عمل باحثين لا يحصون

نذروا أنفسهم له، فحققوا النصوص وترجموها ودونوا النحو في مجوعات، ووضعوا المعاجم، وأعادوا تركيب حقب منسية، وأنتجوا معرفة يمكن تحريها وامتحانها وضعياً⁵ فالاستشراق قائم على افتراض أن الشرق وكل ما فيه بحاجة إلى دراسة تصحيحية من قبل الغرب.... وقد عُين الشرق كما لو كان مؤطر بقاعة التدريس، وبالمحكمة الجنائية وبالسجن، وبالذليل الموجز الموضح⁶

فالاستشراق إذن معرفة بالشرق تضع الشرقي في قاعة التدريس، في محكمة، في سجن، أو في دليل موجز لأغراض التحليل المدقق والدراسة المتبحرة المعمقة لذا عرّفه سمايلوفيتش بأنه "التبجر في لغات الشرق وآدابه"⁷ وهذا التبجر يكون من قبل مستشرق متمكن من المعارف الخاصة بالشرق ولغاته وآدابه⁸ فهو الكفيل بسبر أغوارها والوصول إلى أسرارها. فالاستشراق لا يكاد يخرج في مجمله عن تلك الدراسات المعمقة والمباحث التدقيقية التي قام بها الغربيون لمعرفة الشرق من جميع جوانبه، وقد اختلف الباحثون حول ماهية الاستشراق بين رافض ومؤيد له.

ولعل الرافضين للظاهرة الاستشراقية تكمن في معرفتهم بدوافع اهتمام المستشرقين باللغة العربية والنوايا الخبيثة القارة في نفوسهم واتخاذهم من اللغة "مظهر حسي للناحية الروحية للناس وهي القوة التي تؤثر في أنماط تفكيرهم" على حد قول فون همبولت⁹ ولا مجال للشك في أنهم انكبوا على دراسة اللغة العربية لدرابتهم بأنها هي "الأساس الرصين لدراسة الحضارة العربية والتعمق في فهم العالم العربي"¹⁰ "لإعادة تشكيل الشرق الإسلامي ليصبح" شرقاً غريباً" ولتحقيق دوافع عديدة نكتفي بذكر أفنكها:

الدوافع الحضارية:

الدراسات الاستشراقية والانكباب على دراسة لغة الشرق وآدابها ولهجاتها كانت بغية التسلح للمعركة، فهي بذلك معركة حضارية، ومن مستلزماتها "دراسة لغة العدو لتكون مفتاحاً للدخول إليه حضارياً، أو إيقاف مده الحضاري والمستهدف الأول في الحرب هي الحضارة والثقافة"¹¹. وطمس الحضارة الشرقية وإحلال محلها الحضارة الغربية.

الدوافع التنصيرية والإلحادية:

وتحقيقاً لمقولة ليبنتز التي وظفها إسماعيل أحمد عمارة: "اللغة مرآة لحياة الشعب الروحية"¹² يتضح لنا سعي المستشرقين وإصرارهم على دراسة اللغة والتعرف على حالة

الشعوب من خلالها. و"مما لا شك فيه أن الطبيعة اللغوية العربية الدعوية العالمية للإسلام تعد عاملا من عوامل التركيز عليه أكثر من سواه في الشرق- لأنه كما يتصورونه- عقبة كأداء في طريق التنصير، وقد كان هذا بالتالي عاملا من عوامل التركيز على اللغة العربية بوصفها أهم لغة إسلامية فهناك علاقة وطيدة بين الاستشراق والتنصير، فهما صنوان بل توأمان متلازمان يصعب التفريق بينهما في كثير من الأحيان"¹³. فالجهود التي تبذل من قبل المستشرقين في الدراسات الاستشراقية كان الهدف منها " التبشير وإقناع المسلمين بلغتهم ببطلان الإسلام، واجتذابهم إلى الدين المسيحي"¹⁴ لذلك كان لابد للمنصرين من معرفة العربية وذلك لكي يتمكنوا من أمور منها¹⁵:

- فهم أفكار خصومهم عن طريق الترجمة، فتنافسوا في ترجمة القرآن وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، بيد أن هذه الترجمات في جملتها لم تتخلص من الهوى، ولم تكن موضوعية وقد تفاوتت في ابتعادها عن الموضوعية بل واتصافها بالثرهات والافتراءات الإلحادية، وقد حذا المستشرقون المتحاملون على الإسلام في موقفهم من القرآن حذو مشركي مكة، وبذلوا محاولات مستميتة لبيان أن القرآن ليس وحيا من عند الله وإنما هو من تأليف محمد صلى الله عليه وسلم، ويقول " جورج سيل" في مقدمة ترجمته الإنجليزية لمعاني القرآن التي صدرت عام 1836م ما يأتي:

" محمد كان في الحقيقة مؤلف القرآن والمخترع الرئيسي له "¹⁶ وقد ذهب الخيال الاستشراقي كل مذهب لإثبات مزاعمه وبيان المصادر التي اعتمدها محمد، يقول ريتشارد " أن النبي قد اعتمد في كتابته للقرآن على الكتاب المقدس، وخاصة على العهد القديم في قسم القصص..... والجانب الأكبر من المادة التي استعملها محمد ليفسر تعاليمه ويدعمها قد استمدته من مصادر يهودية ونصرانية، وقد كانت فرصته في المدينة للتعرف على ما في العهد القديم أفضل من وضعه السابق في مكة حيث كان على اتصال بالجليات اليهودية "¹⁷ **ويعد أن باءت محاولاتهم التشكيكية للقرآن بالفشل، اتجه معظم المستشرقين نذكر منهم " جولد تسيهر وفون كريمر وشيلدون أموس" اتجهوا إلى تشويه الأصل الثاني للإسلام وهو السنة والتشكيك في أصلاتها** ووصف الدين الإسلامي بشتى الأوصاف والادعاءات ومن بين هذه الادعاءات ما يدعيه **موير** " أن سيف محمد والقرآن هما أكثر الأعداء الذين عرفهم العالم حتى الآن عنادا ضد الحضارة والحرية والحقيقة" " وما يفتره **فون جرونبيوم على** الدين الإسلامي: " بأنه دين غير

إنساني وغير قادر على التطور والمعرفة الموضوعية، وهو دين غير خالق وغير علمي واستبدادي" وهو " دين سام بحت، مفرق وموحد بأصيق المعاني، وغير عقلي، ولا يتفق والتفكير الحر"¹⁸ وهكذا يتضح الحقد الدفين على الإسلام باستمرار بمثل هذه الافتراءات التي ليس لها في مادبة العلم نصيب. وسعي المستشرقين في التشكيك في كل من القرآن والسنة إنما كان بغية خلخلة الاعتقاد في الإسلام من أساسه.

- نشر أفكارهم، وذلك بترجمة الإنجيل إلى العربية.

وقد أجمل " يوهان فوك" وهو يترجم سيرة حياة المستشرق الألماني " رايسكه" هذين الهدفين بقوله: " كان من اعتنى باللغة العربية علماء الكنيسة المسيحية الذين بذلوا جهودهم في درس لغة المسلمين، غير أن هدفهم لم يكن علميا بل إنهم أرادوا الرد على الإسلام على أساس تراجم لاتينية للقرآن وهداية المسلمين بواسطة تراجم عربية للإنجيل والكتب الأخرى، أي أن غرضهم كان بعيدا عن تحقيق عادل ودراسة علمية ويذكر فوك في معرض حديثه عن كريستمان" أن كريستمان ومن تبعه في ألمانيا في ذلك الزمان جعل من دراسته للعربية وسيلة لنشر النصرانية في الشرق"¹⁹

إذن فرفض علمائنا للدراسات الاستشراقية كان لإدراكهم وتيقنهم بأن دراستهم للعربية والتمكن منها كان لبث سموم تنصيرية، إحادية وإثارة الشبهات والاختلافات الدينية وفي هذا يقول باريت: " ولم يكن الاختلاف في الأمور الدينية وما يتبعه من خطر تشويه المضمون يظهر إلا بعد التمكن من اللغة، وانتهاج سبيلها إلى الثقافة العربية الإسلامية"²⁰ إذن فهذه الدراسات المستفيضة والولوع العجيب الغريب بدراسة مختلف علوم العربية ونشر مؤلفاتها لا تفسر له إلا في ضوء أهدافهم "فهم يتعرفون على هذا اللون من الفكر ويتبعون شطحاته وانحرافات وكيف يقعد بالناس عن الجهاد فقد تصدروا الترويج بمهمة أكبر من مهمة الجيوش إذ يشل حركة الأمة ويقعدها عن المقاومة، بل يزين لها الاستسلام"²¹، فهذه الدراسات كانت أكبر عون في السيطرة على الأمة الإسلامية وتسيرها على النحو الذي يريدون.

ومن أراد دليلا على ذلك، فلينظر في تاريخ الجزائر، ليرى كيف قاوم (الطرقيون) المتصوفون حركة ابن باديس (الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية*)، وكيف كان لدراسات المستشرقين ومطبوعاتهم أثر في هذا التوجيه الاستعماري الخبيث (للطرقيين) واستخدامهم ضد المجاهدين والوطنيين، وقد أكد هذا المعنى أستاذنا الدكتور محمود قاسم حين قال" إن

الاستعمار الفرنسي للجزائر استطاع بجبروته وعسفه أن يفرض لغته على كثير من المثقفين في الجزائر وشمال إفريقيا غير أنه لم يستطع أن ينال كثيرا من العقيدة الإسلامية، رغم ما بذله المختصون في شؤون الثقافة من محاولات لفصم العقلية الجزائرية، عن طريق تمجيد التصوف الكاذب وإشاعة الخرافات والأباطيل على نحو ما نراه في مؤلفات " لويس ماسينيون" * الذي خصص حياته للكتابة في الحلاج، فجعله صورة من المسيح في الإسلام²²

فماسينيون ما كان يُعنى بالحلاج قدر عنايته بتنفيذ مخطط استعماري "أحكم صنعه فقد ملأ كتابه الضخم عن الحلاج بحشد هائل من الخرافات والترهات والأباطيل، حتى يعمق الهوية بين طائفتين توجدان بالجزائر: طائفة تتمسك بالقديم، فتتساق حسب ظنه إلى اعتقاد أن هذه الخرافات هي صميم الإسلام، وطائفة متفقة بالثقافة الحديثة تتجه من جانبها إلى السخرية والزراية بهذا الإسلام الخرافي بل من الإسلام كله"²³

إذن فالمستشرق ماسينيون عمل من خلال مؤلفاته عن الحلاج على خلق الهوية والانفصام بين الجزائريين وإحداث خدش في صميم الإسلام بترهات وبعث الشك والظنون إلى ملا نهاية. وهذا ما يثبت أن الدراسات الاستشراقية كانت مفتعلة لتهديم البنية الموحدة وتوليد الصراعات وعملت على جعل الشرق يعيش في دوامة التيه والتخلف بعيدا عن الرشد" لم يرى المستشرقون في الشرق إلا ما كانوا يريدون رؤيته، فاهتموا كثيرا بالأشياء الصغيرة والغريبة، ولم يكن يريدون أن يتطور الشرق ليبلغ المرحلة التي بلغتها أوروبا، ومن ثم كانوا يكرهون النهضة فيه"²⁴ وخير دليل عملي الواقعة التي أوردها الدكتور محمد محمد حسين في كتابه: " حصوننا مهددة من داخلها:" وهي أن مندوب مؤسسة روكفلر الأمريكية كان يزور الجامعة السورية بدمشق، وقد تلقا هذا المندوب ولاذ بمختلف المعاذير حين أعربت له الجامعة عن حاجتها إلى بعض المخابر والأجهزة العلمية، ولكنه لم يلبث أن أظهر البشاشة، ولم يتردد في قطع الوعود بالمساعدة حين انتقل الحديث إلى إنشاء معهد لدراسة التصوف الإسلامي"²⁵

وهذا المثال خير دليل على نوايا المستشرقين وما يريدونه لنا، فحين تعلق الأمر بالمخابر والأجهزة العلمية التي تنقلنا إلى العلم وتنتج لنا منجزات العصر كان التلكؤ والاعتذار، وحين كان متعلقا بالتصوف كانت كل الإمكانيات متاحة لتقلنا إلى عالم الفكر والمناهات لنظل على خلاف ونبقى نجتز أشياء لا تعني عن جوع، " فالأمر ليس تجريد العقلية العربية من الأصالة فحسب، وإنما هو أيضا تفرغ الإسلام من كل قيمة إيجابية، وجعله أداة جامدة تقف في سبيل

التقدم الإنساني²⁶ فدراساتهم عن الشرق ومؤلفاتهم تتوجه في بادئ الأمر إلى جس النبض لتوطيد معرفتهم بالشرق ومن ثم تميزه وتدميره حتى يصبح تابع لا تقوم له قائمة وخير ما يجسد ذلك "ألف ليلة وليلة" تلك القصص الخرافية التي روجوها فينا، "ومن يتتبع طبعتها المتوالية ويتتبع الدراسات والبحوث التي أجريت بشأنها يدرك أنهم جعلوها لنا زدا واتخذوها هم مصدر الدراسات للمجتمع الإسلامي في عصوره الناهضة الواعدة، فجعلوا ما في هذه القصص من خرافات هي الصورة الحقيقية للمجتمعات الإسلامية، وريادتنا للبشرية وأيام إسداننا للدنيا وسعادتنا بها"²⁷، فجعلوا ألف ليلة وليلة هي الصورة الحقّة لحياة المسلمين حينما يسودون ويقودون، بمنهج يبدو مستقيماً في ظاهره وفي حقيقته كل الالتواء يعكس صورة البذخ واللهو والمجون، إذ قالوا "إن الأدب مرآة للمجتمع الذي يولد فيه"²⁸.

وبهذا الأسلوب وبهذا المنطق صارت "ألف ليلة وليلة" معين الدارسين منها يأخذون أخبار تاريخهم ومن وحيها يرسمون صورة أجدادهم وآبائهم تسري في أذهانهم بسموم تخذش الحياء، وتقتل في بطيء وتفتك على مهل، وبدون أن تترك أثراً وقد انكب احتفاء المستشرقين بدراستها على نحو عشرين من عُتاتهم وأعلامهم، فأصدروا أبحاث عنها ما بين دراسات وترجمات وتعليقات وسرعان ما سارت تقدم في "حلقات سلسلة في الإذاعات مسموعة ومرئية وكأن ما كان من كتابات ودراسات..... وترجمات ومختصرات لم يكف فأردوا بالسم أن يصل إلى النخاع"²⁹. ولعل الهدف من هذا التوسع يكمن في جعل سائر الأمة ترتوي من هذا النبع المسموم.

حتى فيما يخص آثارهم في النشر فقد اهتموا بنشر كتب مختلفة والاستماتة في إبراز الاتجاهات الفكرية المتعارضة، وكأنهم يريدون أن تشغل الأمة وتستهلك قواها وتستحوذ على فكر علمائها ولب قاداتها، فتضرب بينهم الفرقة، ويعشعش الخلاف وللأسف قد أدت مؤلفاتهم هذه الغاية منها:³⁰

أخبار الحلاج الحسين بن منصور - نصوص قديمة جمعها ماسينيون مع ترجمة فرنسية، وكتاب طبقات الصوفية لسلمي أبو عبد الرحمان، كتاب الأضرار في فقه الشيعة للنعمان بن محمد المغربي القاضي، كتاب الآثار العلوية لأرسطو طاليس. ديوان أبي نواس.

وما شاع عن المستشرقين من الإشادة بدقتهم وتجردهم للبحث والعلم غير الباطن في مؤلفاتهم الذين يخفون تحت شارتها وردائها كل أغراضهم وأهوائهم وأصبحت كلمات "الأكاديمي"

" البحث العلمي " المنهج " حرية الرأي " قيمة العقل " والحيدة العلمية ".... أصبحت هذه الشعارات درعا سابغا توارت تحته مكنونات الصدور، وخفيات الضمائر وسموم الأحقاد سنضرب أمثلة عن خيانتهم للمنهج وبأنهم ليسوا أمناء لتزول الغشاوة عن أعيننا لنرى ما خلف هذه الأفتنة وهو الأمر الذي أكدّه عبد العظيم محمود الديب حين قال "واعلموا أن كلام المستشرقين.... المنهجية والحيدة العلمية مجرد أفتنة تتراكم وتتراكب إمعانا في إخفاء ما تحتها وأن لعلمهم أن حرب الكلمة والفكر ليست كحرب السلاح والدم، فحرب الكلمة والفكر كلما كانت الضربة أخف وأرق وألطف، كلما تباعدت الضربات وكلما كانت الضربات والطعنات مغلفة بغلاف كاف من الحقائق والصدق كلما كان ذلك أوجع وأوقع وأخطر"³¹

بعض نماذج من تحريف النصوص وخيانة المنهج: ولاتساع وتشعب الحديث في هذا المقام سنكتفي بذكر نماذج لتحريفات كل من المستشرق " **جولد تسيهر**" * و" **ول ديوارنت**" المعروفان بحقدما الدفين وقيادتهما حملة شعواء على السنة المطهرة وحشد أقوال تشكيكية جمعوا لها أدلة من أوهامهم وتزييفاتهم وتحريفاتهم.

• **جولد تسيهر**³²: حاول الطعن في رواية الحديث جملة، فيستعرض بعض ما يقوله علماء الرجال في الرواة، ويخرجونه مخرج الجرح والتعديل، ليوهم بأن هؤلاء الرواة مجرحون كاذبون. فلننظر أصل النص وكيف حرّفه " **جولد تسيهر**"، **جاء في التاريخ الكبير للإمام البخاري:** " **وقال ابن عقبة السداسي عن وكيع: (هو) أي زياد بن عبد الله البكائي) أشرف من أن يكذب**" هذا هو النص كما نرى ينفي عن زياد الكذب أشد النفي وأبلغه ومع وضوح هذا النص يحرفه هذا المستشرق إلى " **أنه كان مع شرفه في الحديث كذوبا**". وغيرها من الاتهامات التي لا تجمع ولا تحصى وجهها لعلماء الحديث كالأزهري* وضرب في أخلاقهم وأمانتهم.

• **ول ديوانت:**

وإذا شئنا نماذج أخرى لتحريفاتهم، نورد ما أورده (ول ديوانت) في كتابه (قصة الحضارة)³³ يقول عن النبي صلى الله عليه وسلم: " وقد أعانه نشاطه وصحته على أداء واجبات الحب والحرب، ولكنه أخذ يضعف حين بلغ التاسعة والخمسين من عمره، وظن أن يهود خيبر قد دسوا له السم في اللحم قبل عام من ذلك الوقت، فأصبح بعد ذلك الحين عرضة لحميات، ونوبات غريبة... " يظهر في هذا النص القبح والفحش الذي يكتنه هذا المستشرق لنبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ولأمة الإسلام وسنعنى بضبط هذا المستشرق العلامة متلبسا بخيانة المنهج

ويظهر ذلك جليا في قوله: "وظن يهود خبير قد دسوا له السم في اللحم" فهذا التعبير بظن يريد أن ينفي صحة الخبر، ليبرئ اليهود من محاولة قتله بالسم، ومن قتل الصحابي الجليل الذي كان معه إذن. و"خبر دس السم" موجود مشهور في مصادر السيرة النبوية المختلفة فقد أورده ابن هشام في سياق غزوة خبير ورواه البخاري ومسلم في غير موضع من حديث ابن عباس وأبو داود: "وفيه اعتراف اليهود بدس السم وعفو الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذا الجرم الفظيع، مع موت الصحابي الجليل البراء بن معروف بهذا السم".

ويتضح أن المستشرق "ول ديورانت" قد أمسك بالجرم المشهود "خيانة المنهج والتزييف والتحريف" وإنكار الخبر في إيجاز بارع إلى مجرد ظنّ وهم.

وتتلخص مبررات الموقف الراض للدراسات الاستشراقية باعتبار أن الاستشراق³⁴:

- جناح من أجنحة المكر الثلاثي يستوي مع الاستعمار والتنصير، بل إنه المغذي للاستعمار والتنصير على حد سواء... فهو مركز المعلومات لهذين التيارين وهو الممهّد لهما لدخول الشرق على شيء من العلم والبصيرة.

- ومن أقوى مبررات الرفض أن الاستشراق بدراسته لعلوم المسلمين وإسهامه في الدراسات لم ينطلق من قاعدة علمية مجردة موضوعية، بل إن هنالك دوافع وأهدافا غير علمية ساقطت المستشرقين إلى دراسة الشرق خدمة لأغراض استعمارية وتنصيرية ودينية.

- أنهم عنوا بالنشر في اتجاهين³⁵:

• تراث الفرق، والإحن، وكل ما يؤدي إشاعته ونشره إلى تجديد النزاع بكل صورته، الفكري والمذهبي والسياسي.

• كل ما يفقدنا الثقة بماضينا وأمجادنا، ورجالنا، وقادتنا وألف ليلة سم وصول ويجول فينا.

- أنهم يلبسون طيلسان البحث العلمي ويرفعون لواء الأكاديميات وهم مضللون، خائنون للعلم والمنهج والأمانة.

- إن عنايتهم بالتراث كانت ومازالت وستظل من باب "اعرف عدوك" فهذه الكتب التراثية هي الخرائط والصور لعقولنا وعواطفنا ومشاعرنا واتجاهاتنا واهتماماتنا، فهي المفاتيح التي عرفوا كيف يخططون لتدميرنا ثقافيا واجتماعيا وفكريا وعلميا وعسكريا.

وعلماء الموقف الراض يفضلون أن تحرق الدول الشرقية وثائقها أفضل من أن تقع في يد أعدائها للعب بها وتلويتها.

ولذا يمكننا القول إن الدراسات التراثية الاستشراقية كانت بمثابة دليل للاستعمار في شعاب الشرق وأوديته من أجل فرض السيطرة على الشرق وإخضاع شعوبه وإذلالها، فهو إذن لا يخرج في كونه بابا ينفثون منه سمومهم لمحاربة الأمة الإسلامية في دينها وحصن حضارتها والتشكيك في قادتها ورجالها متلبسين برداء العلم.

بعد أن تطرقنا إلى المواقف الراضية للاستشراق والسلبيات التي سجلت لهم نتطرق الآن إلى الآراء والمواقف الاستشراقية المؤيدة للدراسات الاستشراقية وهكذا" لن نغتهم حقهم في تقدير مالهم من أعمال علمية مفيدة، ولا ضير على المرء إذا اعترف بما لخصمه من مزايا وإيجابيات، إذ أن ذلك ربما يكون حافزا لنا على النهوض والاستعداد من جديد"³⁶، وسنركز على جهود المستشرقين الألمان دون غيرهم وعزلهم عن نظرائهم من مستشركي البلدان الأخرى، لتميز جهودهم وتنوعها والتنويه بموضوعيتها وحضورها الفاعل، وانفرادهم بميزات قد لا تتوافر لدى الاستشراق في البلدان الغربية، فالمستشرقون الألمان على الأغلب لم تسيطر عليهم مآرب سياسية ولم تستمر معهم أهداف التبشير...، ولم يتصفوا بروح عدائية ضد الإسلام والحضارة الإسلامية العربية، بل اتصفوا بحماسهم وحبهم للغة العربية، وتعلق قسم منهم بالأدب العربي والتراث ككليلة ودمنة"³⁷ فقد قدم المستشرقون الألمان جهودا طيبة وإسهامات كثيرة في الدراسات العربية والإسلامية لما تميز به منهجهم من خصائص موضوعية.

خصائص المنهج:

" امتازت دراساتهم في الغالب بالدقة والنزاهة وعدم التعصب والموضوعية أي اتسمت بخصائص المنهج العلمي، وانصرفت إلى أهداف علمية. وقد تميز الاستشراق الألماني عن غيره وذلك لتميز الذهنية الألمانية وولوعها بالبحث، وتقصي جوانب هامة وصعبة من جوانب حضارة البشر. فمنهج الاستشراق الألماني العلمي الدقيق صير الوجهة المهمة في أعماله إلى الوجهتين، الأدبية واللغوية، تحقيقا وتأليفا وترجمة"³⁸.

ومن أبرز أعمالهم التي عادت بالنفع الكبير على الأمة العربية الإسلامية"³⁹:

✓ ازدياد تحقيق مخطوطات التراث العربي، ونيل الدرجات العلمية فيها، وإلقاء المحاضرات في تحقيقها.

✓ ظهور الاهتمام، فيما بعد باللهجات العربية الحديثة (العامية)، من خلال تقييدها وعمل أطالس لغوية لها. ونذكر في هذا الميدان جهود المستشرق الألماني برجستراسر فقد تنقل وبحث

وراء اختلاف اللهجات الدارجة بها وقد سجل كل هذه اللهجات ووضع أطلس لغويا لسوريا وفلسطين عبارة عن 42 خارطة تفصيلية⁴⁰.

✓ تطور الدراسات السامية المقارنة.

✓ صنع الفهارس (البيلوغرافيات) للمطبوع والمخطوط من التراث العربي.

✓ الاسهام في الدراسات اللغوية في العالم العربي من خلال الانتداب للتدريس في الجامعة المصرية آنذاك.

✓ التميز ببعض الاهتمامات، كالاهتمام بالدراسة التاريخية للعربية كلمات وأساليب، أو الاهتمام بالدراسات الصوتية عند العرب أو القراءات القرآنية.

✓ "الترجمة من العربية إلى اللغات الأوروبية.

✓ التأليف في شتى مجالات الدراسات العربية والإسلامية"⁴¹.

إذن موضوعات اللغة العربية التي اشتغل عليها المستشرقون الألمان قد تضمنت قواعدها، وفقهها، وتاريخها، ومعجمها، كما جرى معه الأدب بوصفه مصدرا وأسلوب لتلك اللغة"⁴²، فقد كان لهم الفضل الأكبر في الكشف عن التراث الفكري العربي الإسلامي، فهم الذين قاموا بأول تحقيق علمي لأمّهات كتب التراث العربي"⁴³ وقد بُذلت جهود كبيرة من قبلهم في سبيل ذلك لا يمكن إغفاله أو إنكاره، إذا وضع علماء القواعد الأساسية للسير عليها في نشر المخطوطات وما هيأوا لها من وسائل الحفظ والعناية الفائقة وتمت فهرستها فهرسة علمية نافعة دقيقة تصف المخطوط وصفا دقيقا، وتحقيقها....، وإخراج المعاجم العربية القديمة وتنظيمها، وإصدار المعاجم العربية فقد كان لهم باع طويل في مجال المعاجم بل أنفقوا سنين عمرهم في إعدادها نشير هنا إلى معجم اللغة العربية القديمة، فقد قضى أوجست فيشر أربعين عاما في جمعه وتنسيقه،" كما واصلوا دراستها بجد واجتهاد فقد تعددت عندهم مجالات التأليف في الدراسات العربية والإسلامية وبلغ عدد ما ألفوه عن الشرق ستين ألف كتاب في جميع العلوم والميادين. فمن آثارهم أنهم نشروا لنا أمّهات المراجع، والكتب الأصول وأخرجوا لنا ألوف الذخائر، مرتبة مفهرسة، تعتمد عليها جامعتنا ويرجع إليها علماءنا، مثل: السيرة النبوية: لابن هشام، فتوح البلدان: للبلاذري، الطبقات الكبرى للواقدي، معجم الأبداء لياقوت، الكامل: للمبرد، نقائص: جرير والفرزدق، تاريخ الطبري"⁴⁴

وفيما يلي نظرة خاطفة على أهم منجزاتهم:

✓ ما فتحته محاضرات بروجستراسر (التطور النحوي للغة العربية) للدارسين العرب من أفق للتجديد في دراسة العربية حيث قال فيه الدكتور رمضان عبد التواب " هذا الكتاب صاغه صاحبه المستشرق الألماني بروجستراسر باللغة العربية قبل خمسين سنة.... الكتاب يسد فراغا في المكتبة العربية في ميدان الدراسات اللغوية التاريخية للغة العربية، وأنه ليندر أن تجد مؤلفا في العربية في علم اللغة لم يفد من هذا الكتاب"⁴⁵
كما استفادة الدارسين العرب من⁴⁶:

✓ دراستهم والإفادة من المنهجين المقارن والتاريخي، وأبرز تأثر بها كان عند إبراهيم مصطفى في كتابه 'إحياء النحو (1937) وعبد المجيد عابدين في كتابه (المدخل إلى دراسة النحو العربي على ضوء اللغات السامية 1951م) فقد استفادوا من دراسة المستشرقين على نحو أعمق.

✓ كان لهم السبق في الدراسات الصوتية ودراستها دراسة وصفية والاعتماد على الملاحظة الذاتية، فلقد أشار المستشرقان الألمانيان بروجستراسر وشاده، إلى التطور الصوتي الذي لحق بعض الأصوات العربية، فقد فتحا باب الاهتمام بالوصف الجديد لمخارج الأصوات العربية وصفاتها، ونحا نحوهم تلاميذتهم العرب من أبرزهم: " رمضان عبد التواب "
إذن تتلخص مبررات الموقف المؤيد لدراسات المستشرقين الألمان فيما يأتي⁴⁷:

✓ قد لعبوا دورا فعالا في إحياء اللغة العربية وآدابها عن طريق نشر المخطوطات العربية وإجادة طبعها، وبذل العناية في تصحيحها ومقابلتها بالنسخ الأخرى رغبة في إحياء أصحها، وبيان الاختلاف بين النسخ المختلفة وضبط الأعلام والأماكن وتزويدها بفهارس الأشخاص والموضوعات والأماكن وما إلى ذلك.

✓ البحوث في اللغة نفسها وآدابها وتحقيق ألفاظها ولهجاتها، وكتابة معاجمها وإحياء قديمها وكشف تاريخ آدابها، علاوة عن تحقيق حياة أصحابها قبل الإسلام وبعده على السواء.

✓ الاعتماد في النقد على المناهج الجديدة والتحقيق العلمي، مما أدى إلى اللغة العربية والمطلعين إلى التفقه في آدابها إلى تقديم خدمات جديدة تستحق كل التقدير.

✓ ولقد أسهمت دراسات المستشرقين الألمان بتفسيراتها الجديدة في فهم كثير من القضايا العربية على نحو تبين معه بعض القصور في تراثنا اللغوي، وقد أفصحت دراساتهم عن كفاية في دراسة العربية بمنهج تاريخي ومقارن.

إذن المستشرقين الألمان قد بذلوا جهود جبارة يجب الاعتراف بها.

بعد عرضنا للمواقف الراضية والمؤيدة للدراسات الاستشراقية ومبررات كل منهما بسببياتها وإيجابياتها يأتي دورنا لتقييم الحركة الاستشراقية من وجهة نظرنا وذلك بإعطاء رؤى تقويمية
رؤى تقويمية:

هي حركة فكرية هائلة، وما تنتجه يخص عقيدتنا ولغتنا وتاريخنا وهويتنا المشكلة لحضارتنا، فنحن لسنا في موقف استبعاد كل ما يسئ لمقومات هويتنا، واستبقاء على كل ممدوح وإجادة تميزية، فليس الأمر مجرد استحسان أو استهجان للدراسات الاستشراقية وليست المشكلة في أساسها مشكلة رفض أو تأييد وإنما المشكلة أخطر وأعمق من ذلك وتكمن في كيفية تطويرنا لأنفسنا وكسرنا لحواجز وأغلال الوصاية الفكرية وقيود التخلف التي تسيطر علينا. وكيف السبيل إلى التحرر من القابلية الفكرية للاستعمار؟ ولبلوغ المراد والتحرر من كل الأغلال لا بد من:

✓ كخطوة أولية لتوطيد أواصر التفاهم بين الشرق والغرب؛ فالغرب تغلغل في الشرق بواسطة حلة الاستشراق وهذا الأخير له "جامعاته التي تدرس الشرق الإسلامي، إلا أن الشرق الإسلامي ليس له جامعاته التي تدرس الغرب بفلسفة موازية للفلسفة الاستشراقية ولا بفلسفة إيجابية ترمي إلى مخاطبة الغرب بل إن الشرق يكاد يكون معطلا عن دراسة الكم الذي خلفته الظاهرة الاستشراقية على صعيد ما كتب أو ما نفذ على الشرق عمليا وانعكس على حياته الثقافية وبرامجه التعليمية وأنماط حياته بعامه"⁴⁸ كتوليد عقدتي التصاغر والتكابر، التصاغر تجاه الثقافة الأجنبية والتكابر تجاه الثقافة العربية الإسلامية مما يشكل خطرا كبيرا على الهوية الثقافية العربية ويعمل على خلخلة الانتماء الفكري لذا لا بد من الاهتمام بالباحثين الأكاديميين والعقول المفكرة على مستوى الجامعات وذلك بالزامية:

✓ إقامة أقسام علمية في جامعتنا ومراكز بحث متفرغة عندنا لدراسة الظاهرة الاستشراقية وتصحيح وتصويب كل ما يهاجم حضارتنا الشرقية وذلك بإقامة حوار بناء من خلال هذه المراكز.

✓ الحرص في الجامعات على وجه العموم وفي هذه المراكز على وجه الخصوص على دراسة منجزات المستشرقين في تخصص بعينه وبُعنى المركز بتتبع مدرسة استشراقية معينة.

✓ تدريس مادة الاستشراق اللغوي لطلبة الدراسات العليا وتحفيزهم بمحفزات من أجل الوصول إلى الحقيقة.

✓ إقامة مؤتمرات دولية لمناقشة " ظاهرة الاستشراق " وإيجاد سبل للحوار مع الغرب والخروج بالحلول لتصويب وتصحيح الخاطئ من دراستهم ورسم قوانين صارمة تكون بمثابة خارطة تتبع في الجامعات العربية.

✓ إنشاء مراكز اتصالية مجهزة بأحدث التقنيات لتكون همزة وصل بين جل الجامعات العربية للتنسيق بينها.

لذلك لابد من التغيير الجذري في أسلوب تفكيرنا وإعادة رسكلة مشاريعنا المجسدة لأفكارنا وعقليتنا وعدم الانتظار من الآخر الدخيل أن يغير وترك له زمام الأمور بل لابد من أن نتولها بأنفسنا، ولنجعل مقولة أجدادنا بداية لثورة في التغيير تتطلق من الآن " ما حك جلدك مثل ظفرك - فتولى أنت جميع أمرك " بغية اللحاق بركب التطور العلمي والتقني مع الحفاظ على استقلاليتنا ومقوماتنا وإكسابها مناعة فكرية بعدم الانصهار في الآخر.

قائمة الهوامش والمراجع:

1 عبد العظيم محمود الديب، المستشرقون والتراث، دار الوفاء للنشر والتوزيع، ط2، 1992م، ص: 706.

2 محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المعارف، كورنيش النيل، القاهرة، 1119. ص: 12.

3 المرجع نفسه، ص: 12.

4 ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1990، مادة " شرق ".

5 إدوارد سعيد، الاستشراق، مجلة ديوان العرب، ص: 78، النسخة الالكترونية الصادرة من الموقع الالكتروني: www.diwanalarab.com

6 إدوارد سعيد، الاستشراق ص: 255.

7 أحمد سمايلوفيتش، فلسفة الاستشراق وآثرها في الأدب العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1998، ص: 23.

8 ينظر: يحي مراد، أسماء المستشرقين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004، ص: 6.

9 إسماعيل أحمد عمايرة، المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية، دار حنين، عمان، ط2، 1992، ص: 16

10 المرجع نفسه، ص: 16.

- 11 المرجع نفسه، ص: 18.
- 12 المرجع نفسه، ص: 42.
- 13 المرجع نفسه، ص: 25.
- 14 المرجع نفسه، ص: 26.
- 15 المرجع نفسه، ص: 26.
- 16 محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص: 87.
- 17 المرجع نفسه، ص: 88.
- 18 المرجع نفسه، ص: 118.
- 19 المرجع نفسه، ص: 27.
- 20 المرجع نفسه، ص: 27.
- 21 عبد العظيم محمود الديب، المستشرقون والتراث، ص: 718.
- * هي حركة دينية إسلامية واعية، داعية لحفظ الذات، وصيانة الهوية، ثم إلى المقاومة الجادة الثابتة والوقوف في وجه (فرنسة) الجزائر ومسحها.
- مستنشرق فرنسي، وكان مستشار وزارة المستعمرات الفرنسية في شؤون الشمال الأفريقي والزراعي الروحي للجمعيات التبشيرية الفرنسية في مصر، وخدم بالجيش الفرنسي خمس سنوات في الحرب العالمية الأولى. *
- 22 عبد العظيم محمود الديب، المستشرقون والتراث، ص: 719.
- 23 المرجع نفسه، ص: 719.
- 24 محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص: 123.
- 25 المرجع نفسه، ص: 720.
- 26 محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص: 118.
- 27 عبد العظيم محمود الديب، المستشرقون والتراث، ص: 721.
- 28 المرجع نفسه، ص: 721.
- 29 المرجع نفسه، ص: 726.
- 30 المرجع نفسه، ص: 729.
- 31 المرجع نفسه، ص: 730، 731.

* جولد تسيهر: مستشرق يهودي مجري، لم يرد العمل داخل الحركة الاستشراقية بوصفه مستشرق يهودي، حتى لا يعزل نفسه وبالتالي يقل تأثيره، ولهذا عمل بوصفه مستشرق أوروبي، وبذلك كسب مرتين، كسب أولاً بفرض نفسه على الحركة الاستشراقية كلها، وكسب ثانياً تحقيق أهدافه في النيل من الإسلام، وهي أهداف تلتقي مع أهداف غالبية المستشرقين المسيحيين.

32 ينظر: عبد العظيم محمود الديب، المستشرقون والتراث، ص 731، 732.

* للتوسع أكثر في فهم الموضوع أنظر: عبد العظيم محمود الديب، ص: 732، 733، 734، 735.

33 ينظر: المرجع نفسه، ص: 735، 736.

34 ينظر: علي بن إبراهيم النملة، مصادر المعلومات عن الاستشراق والمستشرقين، استقراء للمواقف، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، السلسلة الثانية (12)، الرياض، 1993. ص: 22، 25.

35 ينظر: عبد العظيم محمود الديب، المستشرقون والتراث، ص: 746، 747.

36 محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص: 60.

37 محمد سعدون المطوري، الاستشراق الألماني ودوره في الدراسات الشرقية، تاريخ الاستشراق الألماني وملاح من أسسه المنهجية، دراسات استشراقية، العدد الثالث، شتاء 2015م، ص: 221.

38 عبد الحسن عباس حسن الجمل الزويني، البحث اللغوي في دراسات المستشرقين الألمان، رسالة مقدمة إلى مجلس كلية الآداب في جامعة الكوفة لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، 2010م، ص: 28.

39 المرجع نفسه، ص: 25، 26.

40 بيرجستراسر، التطور النحوي للغة العربية، ترجمة رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط2، 1994، (مقدمة).

41 محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص: 61.

42 محمد سعدون المطوري، الاستشراق الألماني ودوره في الدراسات الشرقية، تاريخ الاستشراق الألماني وملاح من أسسه المنهجية، ص: 31.

- 43 أحمد سمايلوفيتش، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، 1998م، ص: 549.
- 44 عبد العظيم محمود الديب، الاستشراق والتراث، ص: 725 و ينظر: محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص: 61، 62، 63، 64، 65، 66، 67.
- 45 بيرجستراسر، التطور النحوي للغة العربية، ترجمة رمضان عبد التواب، (مقدمة).
- 46 ينظر: عبد الحسن عباس حسن الجمل الزويني، البحث اللغوي في دراسات المستشرقين الألمان، ص: 37.
- 47 ينظر: أحمد سمايلوفيتش، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، ص: 549.
- 48 إسماعيل أحمد عمارة، المستشرقون وتاريخ صلتهم بالعربية، بحث في الجذور التاريخية للظاهرة الاستشراقية، دار حنين، عمان، ط2، 1992، ص: 76.